مقياس: إشكاليات الفكر الفلسفي العربي والإسلامي المعاصر(2)

الأستاذ: شريف خاصة

المحاضرة الخامسة

الموضوع: إشكالية الهوية و المغايرة في الفكر العربي والإسلامي المعاصر

الأهداف الإجرائية:

- **ان يطلع الطالب على مختلف الأبعاد الفكرية والحضارية لمسالة الهوية والمغايرة**
- **ان يتعرف الطالب على الأسس والمنطلقات لمختلف الرؤى الفلسفية العربية والإسلامية المعاصرة لمسألة الهوية والمغايرة.**
- **ان يحدّد الطالب طبيعة الهوية التي تساعد على تعزيز الانتماء و تغبل المغايرة في المجتمع الواحد**
- **أن يبيّن الطالب مكانة المقومات الذاتية في تشكيل معالم الهوية، و طريق التعامل مع موجة العولمة، ومطلب المغايرة.**
- **ان يناقش بالتحليل والنقد مختلف الرؤى الفلسفية العربية والإسلامية في مسألة الهوية والمغايرة.**

الإشكالية:

إذا كانت الهوية بمثابة الضامن على التمايز والاختلاف، فهل معنى هذا أنن الهوية تقتضي الوحدة ورفض التعدّد والتنوع؟ وهل هناك امكانية لتأسيس الهوية على مرجعيات مختلفة؟

تساؤلات:

- **هل الارتكاز على المرجعيات الذاتية للهوية يقضي بضرورة رفض المغاير لنا في تلك المرجعيات الذاتية والمقومات، المغاير الداخلي والخارجي؟**
- **هل هناك مجال لإحداث توافق بين الحفاظ على الهوية الذاتية مع الاعتراف بالهويات الأخرى والإقرار بحقها في المغايرة والاختلاف؟**
- **هل هناك مجال للحديث عن هوية ذاتية منغلقة على ذاتها في ظل الحراك الثقافي والسياسي الذي يشهده العالم؟**
- **هل هناك مخاطر ما، بسبب دعوة التمسك بالهوية الذاتية ورفض إخضاعها للتحليل والنظر والمراجعة النقدية قصد إثرائها او تصحيح النظرة تجاهها؟**

يقول عبد الكريم ألخطيبي" من دون قيم حضارية، لن تكون هناك هوية، ومن دون هوية ومرجعية ذاتية لن يكون هناك مشروع ولا تفتح على العالم في اختلافه وتنوعه"

تهميد: عند النظر الى التاريخ الفكري الفلسفي العربي الحديث والمعاصر، يتجلى لنا صعوبة وجود اتفاق في مسالة كبيعة الهوية و المقومات التي تساهم في تشكيلها، وهو اختلاف يبيّن أهمية المسألة في ضبط مرجعيات المجتمع و أفاقه الحضارية ومدى قدرته على النهوض والانخراط في صناعة التقدم والحضارة ومواكبة المتغيرات العلمية والحضارية التي تعرفها المجتمعات خاصة الغربية منها، هذه الأخيرة التي أصبحت الصانع البارز للمنظمة الثقافية القيمية والفلسفية. وذلك يرجع الى تجاوز تلك المجتمعات

بعد مخاض طويل تحديد طبيعة الهوية و المقاومات التي تشكلها، مرورا بالدولة القومية و وصولا الى الدولة المدنية التي تقوم على المواطنة كمقوم أساسي في تشكيل معالم الهوية، التي أصبحت عند الغرب كيان متغير يتأثر بمختلف المستجدات الثقافية والسياسية ونزعة الكوننة وكونية القيم.
لكن الوضع في المجتمعات العربية والإسلامية مختلف تمام الاختلاف، إذ لا يزال النقاش والاختلاف بارزا تحديد المقومات المركزية التي تشكل الهوية ، علما أن هذه المسألة لم تكن مطوحة في تاريخ الأمة العربية والمسلمة قبل تعرض معظم دولها الى الاستعمار. فقد كانت الدول تقوم وتزول حسب الفيلسوف ابن خلدون على قوة وضعف العصبية، التي ترجع الى الانتماء العرقي اكثر من الانتماء الى الدين واللغة. لكن بعد صدمات الاستعمار ومختلف الانتكاسات التي عرفتها المجتمعات العربية، أدركت أنها بحاجة الى كيان معنوي يستطيع أن يجمع الشمل ويتجاوز الاختلافات العرقية والإثنية، ويقوي في الأفراد حمية الدفاع عن حقهم في الوجود والحرية وامتلاك دولة وسيادة مستقلة في قراراتها وقوانينها، وقد كان الانتماء الى الوطن الواحد من الركائز الأساسية في بناء كيان الهوية إلى جانب اللغة والدين والتاريخ المشترك. لكن فعالية هذا الكيان في تحقيق النهوض المـمول والتقدم المنشود لم تتحقق، بالرغم من تحقق الاستقلال،
هذا الوضع الذي دفع بالمفكرين في المحدثين الى طرح تساؤل لما تأخرنا وتقدم غيرنا، وهو تساؤل لا يزال مطروح في زمننا المعاصر وإن اختلفت إشكالاته و زواياه، قصد التأسيس لرؤية فلسفية عن الهوية وطبيعتها و مكانة المغايرة في هذه الهوية.
ما هي الهوية وهل هي مفهوم ثابت ونهائي، لا يقبل المراجعة و التعديل بسبب المتغيرات الداخلية والخارجية؟ او ما يشهده العالم من نزعة نحو العولمة؟

الهوية اصطلاحا:

الهوية من الناحية الاصطلاحية فقد تعددت المفاهيم حولها بتعدد العلوم والميادين التي تناولت موضوع الهوية، فالهوية في علم النفس ليست نفسها في علم الاجتماع وغيره من العلوم.إلا أن الهوية أصبحت واضحة نوعا ما فهي تعني الصفة التي يكون عليها المجتمع أو الفرد وتجعله متميز عن غيره «نحن نقصد بالهوية في ذات الوقت ما نوجد عليه على نحو فردي وما نريد أن نكون عليه على معنى ما يميز خصوصيتنا والكيفية التي تتمثل بها هذه الخصوصية معا، بعبارة أخرى الكيفية التي يتعين ويتميز بها كل فرد عن غيره من الأفراد، او جماعة من الناس عن جماعة أخرى او مجتمع عن غيره من المجتمعات، ومنه يمكن القول ان الهوية تعبّر عن الكيان القيمي والمادية للمجتمع، والتي بها يتطابق في الوقت نفسه مع معايير عامة وينتسب بها إلى الجماعات المحددة [1]بمعنى أنها الكيفية أو الصفة التي يكون عليها الفرد بصفة تجعله متميز بهويته عن غيره من أفراد المجتمعات الأخرى.

يمكننا تعريف الهوية على أنها «حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذات[2]2«بمعنى أن لكل شيء هويته الخاصة التي تميزه عن غيره من الأشياء . ويعرفها اليكس ميكشللي (michaelides Alex 1977 (بقوله: «أنها منظومة متكاملة من المعطيات المادية

---

[1]عزيز العظمة، سؤال ما بعد الحداثة مفاهيم عالمية، الهوية من أجل الحوار بين الثقافات، المركز الثقافي العربي، ط 1، 2005، ص 143

[2]مجموعةباحثين،العولمةوالهويةالثقافية،إشرافجابرعصفور،سلسلةأبحاثالمؤتمرات7،المجلسالأعلىللثقافةالقاهرة،مصر،ص 401

والنفسية والمعنوية والاجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهو والشعور بها2« الهوية كيان متكامل من عدة أبعاد نفسية ومادية واجتماعية وتاريخية وفكرية، تخضع هذه الأبعاد لنسق واحد معرفي يحتوي على روح واحدة تولد هذه الروح الإحساس والشعور بالأنا والهو.الهوية ببساطة هي ذات المجتمع وذات الفرد هي تلك النزعة الداخلية التي تحرك الأفراد للحفاظ على ميراثهم وتاريخهم وثقافتهم، إلا أن تعريفها الاصطلاحي متعدد ولا يمكن ضبطه بدقة لأنه مختلف من ميدان ومجال لأخر.

.2فلسفيا

أصبحت الهوية قضية فلسفية عميقة اهتم بها الفلاسفة، لذلك تنوعت الرؤى تجاه هذا الموضوع باختلاف المدارس والتوجهات الفلسفية حيث »أن الهوية موضوع فلسفي بالأصالة،عالجه الفلاسفة المثاليون والوجوديون على حد سواء، المثاليون ميتافيزيقيا حولوه إلى قانون، قانون الهوية والوجوديون نفسيا منعا للانقسام الذات عن نفسها، ومن ثم إنكار الوجود الإنساني، وقد يصبح عند بعض الفلاسفة القانون الأول في الفكر وفي الوجود مثل "فيشته"، والغيرية ليست قانونا مستقلا بذاته مغايرا بل هي نفي للهوية اللأنا[3] " شكل سؤال الهوية مأزق لدى المفكرين والفلاسفة حول إثبات الهوية والحفاظ عن الهوية وماهي الهوية الحقيقية لدى الفرد أصبحت هوية الفرد في صراع مع الغيرية حول إثبات الذات والانا.

أصبحت قضية الهوية قضية وجودية تثبت الوجود الإنساني، ومنها يتأكد الإنسان من ذاته ووجوده في المجتمع الهوية خاصة بالإنسان والمجتمع، الفرد والجماعة هي موضوع إنساني خالص فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون بين الواقع والمثال، بين الحاضر والماضي، بين الحاضر والمستقبل هو الذي يشعر بالفصام، وهو الذي تنقلب فيه هي الهوية إلى اغتراب، الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون على غير ما هو عليه، فالهوية تعبير عن الحرية، الحرية الذاتية الهوية إمكانية قد توجد وقد لا توجد إن وجدت فالوجود الذاتي، وإن غابت فالاغتراب [4]»

وتتجلى الهوية في تفاعل الفرد مع نفسه والمحيط الاجتماعي، حيث يتناول الإنسان قضايا الانقسام والتناقض بين ذاته والمجتمع، كما يواجه أزمة هوية حول تقسيم ذاته والشعور بالتناقض أو الانفصال بين واقعه الراهن والمثال المرغوب، بين الحاضر والماضي، وبين الحاضر والمستقبل، فيظهر الفرد ككائن يعاني من الفصام، حيث قد تنقلب الهوية وتتحول لحالة الاغتراب، الفرد يحمل القدرة على التحول وتغيير حالته، وتكون الهوية تعبيرا عن حريته وذاته، يمكن أن تكون الهوية موجودة أو غير موجودة حسب إمكانية تجسيد الوجود الذاتي إذا كانت موجودة، تمثل الهوية الحرية الذاتية، وإذا غابت، يظهر الاغتراب كنتيجة لذلك الغياب.

الهوية إذا على الرغم من أنها موضوع ميتافيزيقي فإنها مشكلة نفسية وتجربة شعورية فالإنسان قد يتطابق مع نفسه أو ينحرف عنها في غيرها، الإنسان الواحد ينقسم الى قسمين هوية وغيرية أو يشعر بالاغتراب إن مالت الهوية الى غيرها أو انحرفت إليه فالاغتراب لفظ فلسفي، والانحراف

---

[3]حسن حنفي،الهوية،مؤسسة الهنداوي،الولايات المتحدة، 2012،د. ط،ص 07

[4]المرجع نفسه،ص 08

لفظ نفسي، والهوية أن يكون الإنسان هو نفسه متطابقا مع ذاته ووجوده،في حين أن الاغتراب يعني ضياع الذات والهوية الحقيقية[5].

إذن الهوية أصبحت قضية عميقة وعويصة اشتغل عليها الفلاسفة والمفكرين، لأنها تمس الوجود الإنساني وإحساس الإنسان بذاته، فالإنسان يمتلك شعور بالانتماء لموطنه وحضارته ومجتمعه وثقافته بصفة عامة، وبتالي تتشكل معالم هويته بسلام لكن حينما تواجه الهوية أو يواجه الإنسان مشاكل في هويته فهذا يحدث خلل في شعوره ويصيبه الاغتراب.و وهو واقع المجتمعات العربية والإسلامية. وقد حاول العديد إن لم نقل جلهم تحليل هذا الوضع والتأسيس لأطروحات فلسفية من خلالها سعوا الى تقديم مشاريع فلسفية واجتماعية يمكن ان تساهم في خل مسالة الهوية والمغايرة.

من المفكرين العرب المسلمين الذين اشتغلوا على قضية الهوية والمغايرة نجد حسن حنفي، الذي يطرح في كتابه "الهوية" جملة من التساؤلات المركزية، التي يسعى من خلالها الى مناقشة الطريقة التي من خلالها يمكن تحديد مفهوم واضح للهوية، بمعنى لآخر هل يمكن تحديد الهوية بدقة؟ هل هي هوية المكان-مرتبطة بالانتماء الجغرافي-؟ هل تتشكّل الهوية من العرق، هل تنشأ الهوية من الطائفة-الطائفية-؟ هل تنشأ من الدين؟ هل تعتمد الهوية على اللغة؟ أم أن الثقافة هي العامل الأساسي في تشكيل الهوية؟

وهي تساؤلات أثارت جدالا فكريا، يحكم عليه بعض المفكرين بالعقم والدوران في حلقة مفرغة، وذلك لابتعادهم عن النظرة الموضوعية للمسالة و وقوعهم في فخ الانتماءات الايديولوجية. وعدم العمل اولا على تحديد معالم مفهوم الهوية. ولهذا ألحّ حسن حنفي على ضرورة تقديم تعريف للهوية يبتعد فيه ومن خلاله عن التمركز على المكونات التقليدية التي غالباً ما كانت سبباً في توجيه خطاب الهوية نحو صراعات عقيمة؛ زادت م تمزق الهوية بين الأفراد أو مكونات المجتمع، حيث تحوّلت في فترات زمنية تلك المكونات مثل العرق، والدين، و الطائفة والمكان إلى مصادر تفرقة وأدوات للتشتيت و التمزق داخل الأمة العربية، عوض ان تكون عوامل وأسباب لمّ الشمل والتوحيد والوحدة، خصوصاً أنّ تلك المقومات في جوهرها لا تدع إلى أيّ شكل من أشكال الصراع أو التفرقة؛ فالدين مثلاً في جوهره يدع إلى المحبة والتسامح والتعايش في ضل الاختلاف مهما كان نوع ذلك الاختلاف، عقدي كان أم عرقي او مذهبي، لأن الأديان ترتكز على الإنسانية. والأمر نفسه ينطبق على اللغة، فهي لا تحمل جوفها جينات التفرقة والتمزق الاجتماعي ولا تحرّض على اعتماد العنف تجاه من يخالفنا في اللغة، لأنها في كل الأحوال تبقى مجرد وسيلة نعبر بها عن هويتنا و من خلالها يتم الاتصال والتواصل وإنتاج العلم والحضارة.

فالإشكال إذن يكمن في في الإنسان الذي يدعي التمايز والخصوصية والانفراد بهويته وانه حريص على بذل كل جهده لأجل الحفاظ على تلك الهوية والدفاع عنها بقوة تجاه كل خطر يهددها ويعمل على بترها و تفتيتيها او اختزال مقوماتها او إحداث إضافة دخيلة على مقوماتها، بهدف التأسيس لهوية متعددة منفتحة على المغاير . وهي نزعة عرفت بشكل بارز عند التوجهات الأصولية التي تعتبر الدين مكونا أساسيا في تشكيل الهوية، لدرجة أن هذا التوجه قد ساهم في بروز جماعات تميل الى استخدام العنف ضد كل من يخالفها في التوجه والفهم والهوية.

كما نجد هذا الوضع عند الحركات الطائفية والقومية، التي تجعل من الانتماء الطائفي مرجعية ذاتية في تكوين كيان الهوية، فتصبح دائرة الهوية أضيق ولا تتسع لاستيعاب واحتواء بقية الأفراد

---

[5]حسن حنفي،الهوية،المرجع السابق،ص 08

الذي يشتركون في المكان وربما اللغة. و هذه توجهات في حقيقة الأمر تتعارض وتتناقض مع المفهوم الذي يجعل من الهوية متعددة المقومات وأنها خصوصية مفتوحة مرنة تقبل التغير والتطور، قصد تحقيق أبعادها الاجتماعية والثقافية والحضارية. فهي" كائن تاريخي يخضع للصيرورة والتحولات لأنها تحتوي عناصر ثابتة قارة وأخرى متغيرة، فأشكال الثقافة في أية أمة من ألأمم لا تبقى على حالها من السكون والجمود، بل تتغيّر باستمرار، مكتسبة في الوقت نفسه سمات جديدة في كل مرحلة تاريخية مستلهمةً من غيرها ومؤثرة فيه في عملية تلاقح حضاري يمثل بشكل أو بآخر جانباً مهماً من الهوية" لكن بالرغم من هذا هناك م يحاول أن يجعل من الهوية كيانا لا تاريخياً، جامداً لا يتأثر بمختلف المتغيرات الداخلية والعالمية، فنجده يرفض أي طرح يسعى إلى فتح آفاق الهوية وتوسعة ما صدقها لتستوعب المغاير، خصوصا بعد بروز الدولة كتجمع حديث للبشرية والمواطنة كقاسم مشترك يجمع بين الأفراد في الدولة الواحدة، بغض النظر عن امكانية وجود المغايرة والاختلاف داخل الدولة الوحدة، وذلك لأسباب تاريخية ترجع الى الماضي البعيد. وهذا قد يطرح إشكالية تعدد الهويات في الدولة الواحدة والمجتمع الواحد، ما قد يتسبّب في زعزعت الاستقرار وإمكانية زوال الدولة. وهو الوضع الذي يشهده العالم العربي والإسلامي.

وذلك يرجع الى تضييق ما صدق الهوية رغم رحابته، اذ هناك من يتمترس وراء الدين وآخر وراء القومية وأخر وراء الانتماء المذهبي وهلم جرا، بالرغم من أن الهوية ليست أمرا فطريا، بل هي صناعة بشرية، وضعية تقبل المناقشة والتوافق ومنه تقبل المغايرة الداخلية قبل الحديث عن تقبل المغايرة الخارجية. فلقد كان بالإمكان تأسيس هوية تستوعب المغايرة. هوية تقوم على البعد الإنساني ربما قد تساهم في إخراج الأمة العربية والإسلامية من وضعها المأزوم ومن انقسامها الذي لا يزيدها ضعفا يوما بعد يوم.

الهوية عند علي حرب:

يعتبر علي حرب من أهم المفكرين العرب المعاصرين عرف بانفتاحه وعلمانيته وله أعمال تهتم بالثقافة والهوية في صيغتها العالمية والمحلية المتعلقة بالعالم العربي، وهو يرى ان هذه المسالة من اختصاص اهل الفكر والثقافة أولا حيث تشغل المثقف قضية الحقوق والحريات كما تهمه سياسة الحقيقة، فيلتزم الدفاع عن القيم الثقافية المجتمعية أو الكونية بفكره وسجلاته أو بكتاباته ومواقفه، قد يكون المثقف طوباويا أو عضويا ثوريا أو اصطلاحيا، قوميا أو أمميا(...) فهو من يهتم بتوجيه الرأي العام أو من ينخرط في سجال دفاعا عن قول الحقيقة أو حرية المدنية أو مصلحة الأمة أو مستقبل البشرية[6]أي أن المثقف هو ذلك المهتم بكل أمور وأوضاع مجتمعه من الجوانب كلها الثقافية والاجتماعية والسياسية وغيرها وغير ذلك لا يمكن اعتباره مثقفا.

و ولذلك نجده يعرف المثقف بأنه "فاعل فكري يسهم في عقلنة السياسات والمعلومات والممارسات بهذا المعنى المثقف هو عميل لا غنى عنه بين الواقع والقرار أو بين المعرفة والسلطة أو بين

[6]علي حرب، أوهام النخبة ونقد المثقف، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2004، ص 10

المعنى والقوة[7]" هذا التعريف الذي يبرز الدور المنتظر آداؤه من طرف فئة المثقفين العرب. لأجل تقديم رؤية ثقافية كلية ومرنة للهوية وكل القضايا التي تفرضها مختلف المستجدات، بعيدا عن الانتماءات الضيقة. حتى تنار العقول ويوجه السلوك بطريقة سلمية لتحيق الوجود والكينونة. وهو ما يسميه بالسلطة الثقافية التي يحكمها العقل.

كما يرى علي حرب أن المشكلة التي يقع فيها المثقفون والمفكرون العرب هي الاشتغال بقضايا الغرب والآخر و السجالات الفلسفية والثقافية والتطور العلمي الذي يشهده والبنية الفكرية للغرب مهملين في الوقت ذاته الاشتغال على أنفسهم وعلى بنية الفكر العربي الداخلية فيقعون في فخ توجيه اللوم للتقدم والتطور والعولمة والحداثة واعتبارها سببا في فقدان الهوية العربية الأولى الأصلية، لكن الوضع لم يبقى على حاله حيث أصبح النقد من الداخل وتركيز على المشاكل الداخلية ونقاط الضعف نقطة تحول في الفكر العربي المعاصر حيث يقول: "فبينما كان عمل النقد يرتكز على الخارج والواقع وجهت سهام النقد إلى الداخل أي إلى واقع المثقف، فكر وممارسة أو خطابا ومؤسسة [8]"

حجة علي حرب تجاه التشجيع والتحفيز نحو قراءات جديدة معاصرة للثقافة والهوية العربية قوله: " إن العصر الذي نعيش فيه لا يبقى شيئا كما هو عليه لا الدين ولا الحداثة ولا المجتمع ولا الدولة، لا الأصولي ولا العثماني، لا الإسلامي لا اليساري، لا الداعية ولا المثقف، كل شيء أكان ذاتا أم فعلا يحتاج مفهومه ومعناه إلى أن يوضع على طاولة الدرس والتشريح من أجل إعادة التجميع والتركيب أو التوظيف والتشغيل [9]4 بمعنى أن الطرح الذي يدعو إلى الحفاظ على الهوية بمثابة طرح لا معنى له في ظل زمن الحداثة والسيولة الثقافية والعلمية و القيمية فكل شيء متغير ومتنوع ومتطور ولا شيء يثبت على حاله؛ لذلك لا مانع للانفتاح على باقي الثقافات الغربية وأيضا الحداثة والعولمة، ومنه يمكن القول بان الزمن قد تجاوز هذه المشاريع القديمة التي لا تزال تقبع على فكرة التمايز والخصوصية والهوية الذاتية ذات القيم والمعالم المطلقة والنهائية. هي مشاريع وهمية تقوم على معارك دونكيشوتية، لا يمكن ان تصمد امام معول النقد لو كان ممارسا.

لطالما شهد الفكر العربي الثقافي صراعا بين الحداثة والثقافات المتنوعة والمتقدمة والهوية فأصبح المفكرون يحاربون هذا الانفتاح على العالم الغربي ويدعون إلى العودة والتمسك بالتراث بهدف المحافظة على الهوية العربية، لكن هذا عاد بالسلب على الثقافة العربية و أدى إلى ركودها إن أصحاب المشاريع الثقافية من دعاة التحديث للتراث والتحرير للبشر أو التغيير للعالم، إنما يتعاملون مع حداثة العولمة، بفتوحاتها ومتغيراتها، على سبيل السلب والنفي، وبوصفها استباحة للقيم وغزوا للثقافات أو فخا للهويات وتسلطا على الشعوب والمجتمعات، في حين أن الأمر بحسب لغة الحدث ومنطق المفهوم، إنما يتعلق بوقائع وأحداث، علمية وتقنية ترمي إلى إحداث انقلابنا وجوديا يتجسد في إنتاج سلع من نوع جديد، ذات ما هي أثيرية[10] "

بمعنى أن أزمة الهوية لن تتشكل من العولمة والحداثة، فالانفتاح على الثقافات لا يؤثر على الهوية وهنا تكمن علاقة الهوية بالثقافة، العيب ليس في الثقافة نفسها بل في أفكارنا وأوهامنا التي سادت

---

[7]المرجع نفسه، ص 150

[8]المرجع نفسه، ص 11

[9]علي حرب،المصالح والمصائر صناعة الحياة المشتركة، الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت،لبنان،ط 1، 2010،ص123

[10]علي حرب،حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط2، 2004،ص 10

في الفكر العربي.يقول علي حرب أنه "لا عجب أن تقف في مواجهة العولمة قوى ومذاهب متعارضة تقليدية و حداثية دينية وعلمانية كما يجري ذلك بشكل خاص في فرنسا وفي البلاد العربية،حيث تشن الحملات على العولمة تارة باسم الهوية والثقافة وطورا باسم الحرية والاستقلالية[11]»

وهكذا ينتشر التعصب تجاه الهوية والثقافة بهدف المحافظة عليهم، من خلال محاربة كل ما هو جديد ومعاصر من الحداثة والعولمة وكل ما هو أتي من الغرب، والتفكير من هذا المنطلق حسب علي حرب هو في حد ذاته تخلف وإهدار للوقت ووقوع في الدور تصرف الفكر عن البحث عن الأسباب الحقيقية التي قد تؤدي إلى أزمة ومآزق ثقافي للهوية.

علي حرب بموقفه علماني هذا، لا يجد اية جدوى حضارية من البحث عن المبادئ الثابتة للهوية بل لابد من ترك الحداثة تتغلغل لعالمنا فهي لن تشوه التراث بل قد تقدم له رؤية معاصرة جديدة تساعد في إثراء الثقافة والفكر "الحداثة ليست نفيا للتراث، بقدر ما هي قراءته قراءة حية وعصرية وكما أن العالمية ليست نفيا للخصوصيات، بل ممارسة المرء لخصوصياته بصورة خلاّقة وخارقة لحدود اللغات والثقافات، كذلك فإن العولمة لا تعني ذوبان الهوية إلاّ عند ذوي الثقافة الضعيفة، وأصحاب الدفاعات الفاشلة ممن يلقون اسلحتهم أمام الحدث، فيما هم يرفعون شعار المقاومة والمحافظة"[12]إنه يرفض هذا التخوف المرضي، غير المؤسّس.

كون العولمة والعالمية لن تمس الهوية ولن تغيرها ولا تصيبها بأي تشوهات، فهذه الفكرة هي موجودة عند الأشخاص ذو و الثقافة المحدودة والمنغلقة، وبدل التركيز على مثل هذه الأفكار الهدامة يجب التركيز على الواقع وأحداثه أحسن، بمعنى أن الانفتاح عن العالم المتقدم والغربي لا يشكل مشكلة على الهوية وثقافة.

إن العلاقة بين التراث والقديم والهوية عند علي حرب تكمن في تساؤله الذي طرحه في كتابه حديث النهايات: "ما هي ثمرة عقود من ممارسة الوصاية من قبل النخب المثقفة والفكرية على الهوية والأمة؟" وكان جوابه على هذا السؤال بأن حصيلة دفاعات فاشلة وممارسات عقيمة،

غير منتجة، إزاء الأحداث والمستجدات، سواء من حيث الصعيد الخارجي أو الصعيد الداخلي، الأمر الذي جعل النخب، وما يزال يجعلها، تنتقل من صدمة إلى صدمة من صدمة الحداثة الى صدمة ما بعد الحداثة أو تنتقل من فخ إلى آخر، من فخ الهوية إلى فخ العولمة، بمعنى أن النخب المثقفة الذين يمارسون الثقافة ويؤسسون لأطارح وفزّعات الغزو وفقدان الهوية يدخلون المجتمعات العربية في متاهات وصراعات لا نهائية ين طرفين طرف ثابت وهو التراث (الدين، اللغة، التاريخ) وطرف متغير طرف الهوية وطرف العولمة[13].

يقول علي حرب في علاقة الهوية بالثقافة بأن »خطاب الهوية يشهد بنفسه على نفسه إذ هو خطاب حافل بمفردات الغزو والاختراق والاكتساح والمحو، في وصفه للعلاقة بين الثقافة الغربية والهوية الثقافية العربية"[14] بمعنى أن خطاب الهوية متشكل من تلك الصراعات والغزوات فأصبحت كل ثقافة جديدة دخيلة عن العالم العربي، قد تزعزع القيم والعادات المتعلقة بالهوية والثقافة.

---

[11]المرجع نفسه، ص 11

[12]علي حرب،حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية،المرجع السابق،ص 13

[13]علي حرب،حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية،المرجع السابق،ص 20

[14]المرجع نفسه، ص 21

فالنخب المثقفة تفكر وتتصرف من حيث علاقتها بالهوية، بمقتضى الفطرة، أو بحسب معطيات الوعي المباشر، بمعنى أنها تبدو مستنفرة في وعيها بهويتها إلى أقصى درجات الوعي، ولكن على حساب صناعة المفهوم وفعل العقلنة وممارسة التعقل، على هذا المستوى يكاد الامر يكون في درجة الصفر بدليل أننا لا نجد حتى ألان من استطاع التجديد والابتكار في مفهومات الهوية والوعي والعقلانية فضلا عن مصطلح المفهوم نفسه[15] إن أي مفكر يدافع عن الهوية منطلقا من الفطرة، دون أن يشكل ويبني ممارسة عقلانية واعية بالهوية، لن يصل أبدا إلى مرحلة الابتكار والتجديد والإبداع، ومنه يعجز عن تقديم قراءات معاصرة تنفع الأمة والثقافة العربية قراءة ورؤية جديدة تحمل مفهوم أخر للهوية بعيدا عن التعصب والتمسك المفرط.

علي حرب ذي الشخصية العلمانية لا يرفض الانفتاح على ثقافات العالم، بل يدعو إلى التقرب من العولمة والحداثة وما بعد الحداثة حتى، لأنه يرى أنه لن تكون سبب في فقدان الهوية، ولابد أيضا من تقديم قراءة نقدية للمفهوم العربي تجاه الهوية.

ثانيا: عند حسن حنفي:

مثلما سبق و أن اشرنا، يعد حسن الحنفي من أهم المفكرين أصحاب التيار التنويري، كما أنه من أهم الدارسين لثقافة الغربية والاستغراب اهتم بالهوية وماهيتها وأثرها على المثقفين والثقافة، كما أن حسن حنفي يرى أن الهوية تفرق بين ثقافات العالم حيث أن حسب اعتقاده أن الهيمنة تكون لصالح ثقافة ما على حساب ثقافة أخرى، حيث أن في الهويات يتوحد العالم كله، تحت سيطرة المركز، وتصبح ثقافته هي نموذج الثقافات، وباسم المثاقفة يتم انحسار الهويات الثقافية الخاصة في الثقافة المركزية مع أن مصطلح المثاقفة سلبي ويعني القضاء على ثقافة لصالح أخرى، ثم ابتلاع الأطراف داخل ثقافة المركز، وتبرز مفاهيم جديدة؛ التفاعل الثقافي لتنتهي إلى أن ثقافة المركز هي الثقافة النمطية، ممثلة الثقافة العالمية [16] « بمعنى أن الغلبة تكون لصالح الثقافة المهيمنة وتنتشر ظاهرة المثاقفة أكثر فأكثر لأنه يعتبر نهاية لثقافة أخرى.حسن حنفي لم يكتفي بدراسة الهوية بل أيضا سعى إلى تعريفها فهو لا يرى أن الهوية مستقلة عن الإنسان والمجتمع بل هي وليدة من الإنسان نفسه فهو لا يولد بماهية وهوية لكنه يكتسبها مع الخبرة في الحياة نرى أن حسن حنفي في هذه الفكرة متأثر بالوجودية وجودية ساتر مثلا يقول حسن حنفي "الهوية خاصة بالإنسان والمجتمع والفرد والجماعة وهي موضوع إنساني خالص، فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون يمكن اعتبار أن الهوية هي فكرة يشعر بها الإنسان بالانتماء إلى مجتمعه وثقافته ومعتقداته وذاته أيضا ومنه يدافع الإنسان على هويته ظنا منه أنه يحميها بهذه الطريقة.

إن كل مثقف يدافع عن الهوية نجده أنه يعتقد بأن الهوية فكرة ثابتة لا يمكن المساس منها وأي محاولة لتغيير في أحد مبادئها يؤدي ذلك إلى تشوه الهوية، لذلك وجب الحفاظ على هذه الهوية والدفاع عنها في وجه الثقافات المتعددة والعولمة أيضا وإحياء التراث والمحافظة عليه من المساس، بمعنى أنها رؤية متعصبة تجاه الهوية، وهذا ما يبرر انغلاق الثقافة والحضارة العربية

---

[15] المرجع نفسه،ص 22

[16] حسن حنفي، الهوية، المرجع السابق، ص 11

عن الثقافة الغربية إلا أن حسن حنفي يرى أن » ليست الهوية موضوعا ثابتا أو حقيقة واقعة بل هي امكانية حركية تتفاعل مع الحرية فالهوية قائمة على الحرية لأنها إحساس بالذات، والذات حرة، والحرية قائمة على الهوية لأنها تعبير عنها[17]» من هذا القول تبرز لنا مركزية الهوية في تعزيز روح الانتماء داخل المجتمع والأمة العربية و الإسلامية، فهي اللحمة التي تجمع وتحقق التلاحم ين الأفراد وتعطي معنى وجودي للفرد ثم الجماعة، ومنه يصبح وضع هذه اللحمة او الكيان محددًا لحالة المجتمع، فإن كانت ضعيفة وغامضة وناقصة الحضور في ذوات الأفراد، بحيث يضعف تأثيرها، فإن الغربة هي التي ستغلب آن ذاك، وإن كانت قوية في وضوحها وتأثيرها، فسيكون الشعور الفردي والجمعي بالانتماء قوي.

و يعتبر الاغتراب من أهم المصطلحات والمفاهيم الأساسية التي طرحت في أعمال حسن حنفي إلى جانب الهوية مفهوم الاغتراب حيث " قد تتحول الهوية الى اغتراب، تنقسم الذات على نفسها وتتحول ممّا ينبغي أن يكون إلى ما هو كائن، من إمكانية الحرية الداخلية إلى ضرورة الخضوع للظروف الخارجية بعد أن يصاب الإنسان بالإحباط، والإحباط عكس التحقق، وضعف الإرادة وخيبة الأمل، وتخل عن الحرية، تشعر بالحزن دون معرفة السبب، وتشعر باليأس والشقاء كما وصف فلاسفة الوجود مثل كيركغارد وهايدجر وسارتر، ثم يسيطر الاغتراب على موضوع الهوية (فيكون الاغتراب الأكثر شيوعا، و الأكثر وقوعا، والهوية حالة مثالية في حين أن الاغتراب حالة واقعية[18]" بمعنى أن الإنسان عندما يحتك بالواقع يتخلى عن الهوية ويدخل في حالة الاغتراب والأمر المألوف، وتصبح الهوية حرية فردية من الصعب التمتع بها في الواقع. ومنه لا مجال للمشاحنة في إلزام أي كان بها. لأنا في عصر الحريات، حرية الانتماء والاعتقاد، واختيار وإتباع أية ثقافة. فيبقى القاسم المشترك هو الانتماء لدولة وفقط حسب حسن حنفي ومنه يصبح الدفاع عن الهوية في ظل التطورات الحالية من علمنة وعولمة واكتساح العالم الغربي العالم كله ثقافيا واقتصاديا وفلسفيا وعسكريان لدرجة انه لم يبقى مجال للحديث عن مقاومة هذا الزاحف القوي، الذي سيمحو كل الخصوصيات ويعوضها بقيم العالم الغربي الأمريكي بالخصوص، بل هو أمر لا غاية منه ولا جدوى منه، وما بقي إلاّ تقبّل الواقع واعتبار الهوية حالة مثالية يصعب الثبات فيها.

الاغتراب هو حالة تصيب الإنسان عندما تتغير عليه الثقافات أو يندمج في ثقافة غير الثقافة التي ينتمي لها، وهذا ما يحدث مثلا للمسلمين الذين يعيشون في بلد كافر وغير مسلم. كما أن حسن حنفي يقول إن المثقفين يعانون من التغريب بسبب احتكاكهم بالثقافة الغربية حيث يقول: »تنشأ ظاهرة التغريب بين المثقفين كردة فعل على التخلي عن الهوية الأصلية ويعني التغريب أخذ الغرب نموذجا في الفكر والحياة اليومية في الثقافة واللغة واللباس والمنظور، ويصبح نموذج الخواجة أحد نماذج التحديث في الفكر العربي المعاصر، فالغرب مصدر العلم، ونموذج الحداثة منذ فجر النهضة العربية الحديثة1 « بمعنى أصبح التغريب يدل على التخلي عن الهوية الُأصلية لهم. كما أن قضية الهوية ارتبطت بالثقافة، وأصبحت نقطة انبثاق أهم الإشكالات والتيارات الفكرية والثقافية العربية والإسلامية، فنجد من يدافع عن التراث حفاظا عن الهوية ومنهم من يدافع عن التجديد باعتباره لا يمسّ الهوية الأصلية، واتجاه إصلاحي توفيقي يتمسك بالهوية ومقوماتها ويدع الى الانفتاح على المغاير ، لكون المصالح لا تتضارب بل تتألف، حيث يقول

---

[17] حسن حنفي، الهوية، المرجع السابق، ص 32

[18] المرجع نفسه، ص 24

حسن حنفي »أخذت الهوية الإصلاحية اتجاها يربط بين القديم والجديد، بين الماضي والحاضر، بين الأصالة والمعاصرة بين التراث والتجديد[19] "

حسن حنفي ليس ضد التجديد بل يدعو إلى التجديد وتجديد التراث لما يحمله من عوامل النهوض والقوة وتحقيق الذات، لكن بشرط تجاوز البكاء على الأطلال او التغني بالماضين بل يكون بتحليل ونقد هذا التراث وضبط ما هو صالح وما هو غري ذلك للتجاوز الزمني له، كما يؤكد امكانية الانفتاح دون الانسلاخ عن طريق الأخذ من الثقافة الغربية منتجها القيمي والثقافي والمادي وكذلك العلمي والقيام بمزجه بشيء من الثقافة العربية لينتج لنا نهضة عربية كاملة متكاملة حيث يقول في كتابه " **إعادة تقسيم التراث طبقا لحاجات العصر، فالقديم يسبق الجديد، والأصالة أساس المعاصرة، والوسيلة تؤدي إلى الغاية، التراث هو الوسيلة والتجديد هوالغاية"**3[20] بمعنى أن مشروع حسن حنفي نهضوي، يسعى لمواكبة العصر وفي الوقت نفسه يحافظ على التراث والهوية الثقافية للحضارة العربية.

فعملية التجديد حسب المنهج الذي يعتمده حسن حنفي يضم نقطتين:

أولا:عن طريق انتقاء مذهب أوروبي حديث ومعاصر ثم قياس التراث عليها، ورؤية هذا المذهب المنقول في تراثنا القديم وقد تحقق من قبل ومن ثم نفتخر بأننا وصلنا إلى ما وصل إليه الأوروبيين المعاصرين بعشرة قرون أو أكثر من قبل، فهناك أرسطية ليبرالية واشتراكية وديكارتية إصلاحية وكانطية أخلاقية وماركسية ومادية غربية وشخصانية إسلامية ووضعية أصولية....الخ وهي اتجاهات نشأت بعد أن استطاع عدد من الباحثين الذهاب إلى الخارج في بعثات أولى 1« معنى هذا نأخذ المنهج الغربي ونطبقه على التراث بهدف التطور والوصول لما وصلت له الثقافة الغربية.

والنقطة الثانية في التجديد هي نقطة تخص الثقافة من الداخل وليس الخارج، وذلك عن طريق "إبراز أهم الجوانب التقدمية في تراثنا القديم، وإبراز ما يمكن أن تلبيه من حاجات العصر من نقدم وتغير اجتماعي فتبرز الاتجاهات الاقتصادية في الملكية العامة وفي تنظيم الزكاة أو نظرياتها القانونية في التشريع بوجه عام، ولا تعطي صورة عامة للتراث كله، وإعادة بناءه طبقا لحاجات العصر في حين أن المطلوب تطويرها وتوسيعها حتى روح العصر 2[21]« أي أننا نقوم بتفحص التراث ونستخرج منه ما هو لائق بالحضارة والثقافة والهوية العربية ونحافظ، ونغير تلك الأمور التي لا تطابق معطيات العصر وتعطل التقدم والتطور والنهوض بالثقافة العربية.

إذن فإن الهوية مرتبطة بالثقافة عند حسن حنفي، حيث اعتبر أن الهوية أمر إنساني خاضع للحرية إلا أن الهوية لا يمكن تطبيقها على أرض الواقع بسبب تعدد الثقافات والعوالم والاغتراب أيضا أمر لابد منه وحقيقة ملتصقة بالواقع، كما أنه يرى أن التغرُّب يعني التخلي عن الهوية الأصلية، إلا أن الهوية عنده متحركة وليست ثابتة بمعنى أنه لا داعي للتمسك بها بطريقة متعصبة، فالتيار الأمثل هو الإصلاحي الجامع بين القديم والجديد القابل للانفتاح عن باقي الثقافات.

---

[19] حسن حنفي، الهوية، المرجع السابق، ص ص 35-34.

[20] حسن حنفي، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، مؤسسة الهنداوي، القاهرة، مصر، ط2، 1991، ص16.

[21] المرجع نفسه، ص ص 35 36

الهوية عند محمد عابد الجابري

لقد اشتغل محمد الجابري على العقل العربي والفكر العربي جملة وتفصيلا، بمعنى أنه لم يهتم فقط بالعقل العربي ونقده بل اهتم بكل ما يخص الهوية العربية والثقافة العربية وطرح أهم القضايا المعاصرة التي قد تشكل خطرا على الهوية الثقافية العربية، والفكر العربي ككل.

وهو يرى أن العلاقة بينها وبين العولمة، تتجلى في اختراق العولمة للهوية الحضارية للأمم والشعوب، من خلال تأثيرها على المنظومات المكونة لثقافتها، بما في ذلك منظومات التفكير والتمثيل، وكذلك منظومات القيم والتعبير والسلوك[22].

يرى الجابري أن العولمة تؤدي الى زعزعة وانقسام في الهوية من الداخل وهذا ما يؤدي فيما بعد لظهور ثنائية داخلية في الهوية، فهو يقرّ بأن الاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة لا يقف عند حدود تكريس الاستتباع الحضاري بوجه عام، بل إن سلاح خطير يكرس الثنائية والانشطار في الهوية الوطنية القومية ليس الآن فقط بل وعلى مدى الأجيال الصاعدة والقادمة العولمة تحدث انقسام حضاري وثقافي في الأمة بسبب من هم ضد العولمة ومع العولمة. هذا الانقسام والثنائية يتسبب في بروز تمايز واضح وعميق بين ثقافة البادية وثقافة المدينة، فثقافة البادية تتميز بكونها محافظة في جميع المجالات التي تتعلق بالحياة كالقيم والأفكار والسلوكيات وغيرها، أما ثقافة المدينة تتميز بكونها متأثرة بالغرب في جميع المجالات، حيث تكاد تزول فيها مظاهر الثقافة الوطنية التقليدية[23].

يقول الجابري فيما يخص الانقسامي الثقافي: »الأمر يتعلق فعلا بعالمين مختلفين تماما،عالم محافظ كليا جامد في قوالب قديمة تحتفظ بكل مقوماتها ومظاهرها، وعالم عصري مخترق كلية تهيمن فيه الحداثة الغربية"[24] ومنه يصبح هناك عالم من المثقفين المحافظين على التراث والهوية الثقافية والتراث الأصلي، في حين أن العالم الثاني يواكب العصر والعولمة.

و النتيجة الحتمية التي تنبع من الانقسام بين التقليدي والعصري هي بروز الصراع وهي حرب بين الأصولية والتغريب، حيث تجعل من الصراع صراع تناحري هذا الأخير يجمد الحركة في مواقع ثابتة، فيعمق الهوية ويكرس التمزق والتشرذم والهروب إلى الوراء تارة وإلى الأمام تارة حينا مما يفسح المجال لظهور الطوائف والنعرات التي تؤثر في حاضر ومستقبل الهوية الثقافية، كما نجده يبين لنا في هذا المجال أن الصراع المبني على العنف المسلح في بعض الدول العربية هو صراع بين قطبي الثنائية وطرفي الانشطار.

إذن العولمة سبب في الانشطار والانقسام في الهوية الثقافية، كما أنها تنتج أطراف متصارعة فيما بينها حول قضية التجديد والانفتاح على الثقافة العالمية والمحافظة على التراث والهوية الأصلية، إلا أن العولمة هدفها تجميع كل الثقافات في ثقافة واحدة شاملة للجميع »تعمل على تنميط الثقافات في شكل واحد يحمل صفة عالمية[25] "

---

[22] محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات لوحدة العربية، بيروت، ط4، 2012 ص 214.

[23] محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، المرجع السابق، ص ص216-217

[24] المرجع نفسه، ص ص 222 219

[25] شريف رضا، الهوية العربية الإسلامية وإشكالية العولمة عند الجابري، كنوز الحكمة، الجزائر، 2011، د. ط، ص 58.

لقد حدّد الجابري عشر أطروحات وهي بمثابة مسلمات يعتمدها الجابري، والتي حاول فيها تحديد إطار للعلاقة بين العولمة والهوية التراث والثقافة : **الأطروحة الأولى**: لأنه ليست هناك ثقافة عالمية واحدة، بل ثقافات[26] كون العولمة تعمل على كوننة و توحيد كل ثقافات العالم تحت ثقافة واحدة شاملة، وهذا من المستحيل حيث أن لكل أمة ثقافة خاصة بها تختلف عن باقي الثقافات، ويقول عنها عابد الجابري: "منها ما يميل إلى الانفلاق والانكماش ومنها ما يسعى إلى الانتشار والتوسع ومنها ما ينعزل حينا وينتشر حينا آخر .

أما الأطروحة الثانية فهي«: للهوية الثقافية مستويات ثلاثة: فردية، وجمعوية، ووطنية قومية ، فالفردية هي انتماء والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساسا بنوع)الآخر(الذي تواجهه[27] حيث يرى أن الثقافة تمر على ثلاث مستويات فردية وهي ذاتي وتخص كل فرد من الأفراد، الجمعوية وتخص ثقافة المجتمع وتتمثل في العادات التقاليد، أما الوطنية فهي الانتماء الى الوطن والقومية وقد تشكل العصبية.

الأطروحة الثالثة: «لا تكتمل الهوية الثقافية إلا إذا كانت مرجعتها: جماع الوطن والأمة والدولة. [28]« إن الهوية الثقافية الكاملة هي تلك الهوية التي يجتمع فيها الوطن والأمة ليكون لها تاريخ وحضارة وجذور أصيلة، الهوية الثقافية لا تكتمل ولا تبرز خصوصيتها الحضارية، إلا في الإطار الوطني يقول الجابري: »تغدوا هوية ممتلئة قادرة على نشدان العالمية، على الأخذ والعطاء، إلا إذا تجسدت مرجعتها في كيان مشخص تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن والأمة والدولة [29] "

ومنه يمكن القول انه يوجد عدد لا بأس به من الأطروحات العشر التي وضعها الجابري وقد ذكرنا أهمها، واعتبرها مسلمات ومنطلقات ومرجعيات، لا يمكن للثقافة أن تخلو منها. فهو يرى أن العولمة تؤدي إلى انقسام الهوية الثقافية، لذلك وجب الحفاظ على التراث الثقافي للأمة العربية، لكنه في الوقت نفسه يدعو إلى قراءة جديدة لهذا التراث القديم، قراءة تعتمد على رؤية معاصرة ملائمة للعصر حيث يقول: «إننا نعتقد أن الدعوة إلى تجديد الفكر العربي، أو تحديث العقل العربي ستظل مجرد كلام فارغ، ما لم تستهدف أولا وقبل كل شيء كسر بنية العقل المنحدر إلينا من عصر الانحطاط؛ لذلك له كتاب بعنوان نقد العقل العربي، فهو نقد الآلية التي يعمل بها العقل ويدعو إلى آلية جديدة ناقدة.

ولأنه يدعو إلى قراءة تجديدية جديدة للتراث فهو بذلك يتبنى القطيعة المعرفية الجزئية مع التراث، مقاطعة الطريقة التي نفكر بها في التراث »إن القطيعة التي ندعو إليها ليست القطيعة مع التراث بل قطيعة مع نوع من العلاقة مع التراث، القطيعة التي تحولنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث أي إلى شخصيات يشكل التراث أحد مقوماتها [30] " منه يدعو إلى رؤية جديدة معاصرة لتلك السائدة،

---

[26] محمد عابد الجابري، الهوية الثقافية والعولمة، المرجع السابق،ص 222.

[27] محمد عابد الجابري، الهوية الثقافية والعولمة، المرجع السابق، د. ص 3.

[28] محمد عابد الجابري، الهوية الثقافية والعولمة، المرجع السابق، د. ص 3.

[29] محمد حسن البرغثي، الثقافة العربية والعولمة، المؤسسة العربية للدارسات، بيروت، 2007، ط1، ص 117.

[30] محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت ط6، 1993، ص 20.

بدأ مشروعه من العقل العربي، مرورا إلى الثقافة العربية والهوية، كما أنه مدرك تماما لذلك الخلل الذي تولده العولمة والانفتاح عن العالم وباقي الثقافات، اتخذ موقف إصلاحي بين الجديد والقديم بقراءة وقطيعة جديدة للتراث، إن العلاقة بين الهوية والثقافة عند الجابري واضحة وجلية في مشروعه بصفة عامة فهو يريد الحفاظ على ما هو صالح وتغيير وإحداث قطيعة مع تلك الأوهام المتوارثة في الثقافة.

رؤية عبد الله العروي: القطيعة المطلقة

جوهر قراءة عبد الله العروي للتراث والهوية تقوم على القطيعة الكليّة التي تقوم على النقد الكلّي والشامل مع التراث المتراكم وتفكيك بنايته، ومنه ضرورة الانفتاح على الحداثة لأنها لسبيل الوحيد للتخلّص من سطوة التراث علينا، وهذا لأن التراث لم يعد يحمل رسالة إلينا، ولا يقدم حلولا لمشكلاتنا الفكرية والثقافية، في ظل الحداثة ولهذا يقول" إن الاستمرار الثقافي الذي يخدعنا، لأننا ما زلنا نقرأ المؤلفين القدامى ونؤلف فيهم، إنما هو سراب، وسبب التخلّف الفكري عندنا هو الغرور بذلك السراب وعدم رؤية الانفصام الواقعي، فيُبقى وفاؤنا للأصل حقيقة مع أنه أصبح حنيناً رومانسياً منذ أزمان متباعدة. ومنه تصبح الاستفادة من منتجات الحداثة المختلفة حتمية حضارية "الحداثة موجة العوم ضدها مخاطرة، ماذا يبقى؟ إمّا الغوص حتّى تمرّ الموجة فوقنا، فنل حثالة، و إمّا أن تقوم نعوم معها بكل ما لدينا من قوة، فكون من الناجين في أية رتبة كانت" هذا النص الذي يؤكد الموقف الصارم للعروي من مسألة الهوية، هذه الأخيرة التي تستعمل من طرف المفكرين والساسة قصد نحت مكانة محترمة ومتميزة للأمة العربية في هذا الوجود، مكانة تضمن فيها الأصالة والخصوصية، كمحفز للمناعة الحضارية والثقافية، وهو موقف يرى انه سلبي وغير قادر على تحقيق الغاية المنشودة، لأن المرجعية التي تعتمدها تلك الرؤية في حقيقتها قد تجاوزها الزمن والعصر، هذا الأخير الذي أصبحت منتجات الحداثة الثقافية والسياسية والمادية قد اكتسحت العالم بما فيها العالم العربي، ومنه لم يبقى مجالا للحديث عن الهوية والتمايز، بل من الضروري الانخراط في معترك الحضارة والاستعانة بمنتجات الحداثة، وان كانت البدايات تقوم على الاستهلاك لتلك المنتجات، لكنها ستمكن الأمة من احتلال مكانة في التاريخ مستقبلا.

لقد تبنى العروي موقف القطيعة الكلية مع التراث وكل ما هو قديم، وضرورة البحث عن حلولا جديدة يمكن أن تساهم في تكوين مجتمعات ترتكز على قيم المواطنة في الدولة المدنية. ومنه تتخلى عن المرجعيات الذاتية التي لن تقدم أي جديد ايجابي في تأسيس كيان المجتمعات العربية ثقافيا وسياسياً.

يظهر موقف عبد الله العروي فيما يخص التراث في قوله بأنه من أجل خلق ثقافة تعود أصليتها إلينا و تتحد لابد لنا أن نعمل على إعادة بلورة فلكلور جديد **"إن موقفنا اليوم يتلخص في رفض تراثين : تراث الثقافة المسيطرة على عاملنا الحاضر التي تدعي العالمية وإلالمامية وتعرض نفسها علينا إلى حد الإلزام والضغط و لا تفتح لنا بابا سوى التقليد أو والاعتراف بالقصور، وتراث ثقافة الماضي الذي اخترناه تعبيرا لنا في عهودنا السابقة لكنه لم يعد اليوم يعبر عن جميع جوانب نفسياتنا"**[31]

[31] عبد اله العروي، العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء (المغرب)، ط6،.

لا يستطيع الإنسان أن يعيد إحياء ما مات أي لا يمكن إعادة بث الحياة في فلكلور انقضى وقته وزال ولكن يستطيع تعريف أبناء المجتمع بتاريخ وتراث أجدادهم لكي يتعرفوا على ماضيهم وما يحمله بين طياته من خبرات واسعة قد تلزمهم في حياتهم المستقبلية إن أعاد التاريخ نفسه وكذا يتعرفون على حقيقة جذورهم ويمكن كذلك أن يعيد استلهام عناصر ومواد ثقافية جديدة من التراث القديم،وذلك عن طريق استحداث منهج آخر يبتعد كل البعد عن الثقافة الغربية .

العروي يطالب بدمج الثقافات لكون المحيط الذي نعيشه أصبح مكون من مزيج من مختلف الثقافات، التي تهدف جلها إلى الارتفاع بمستوى الإنسان وتعميق قدراته ليتوسع ويتعمق فيها دون رفضها من أجل بناء إحساس جديد وتعبير جديد .

رؤية مالك بن نبي للهوية وعلاقتها بالثقافة والنهوض الحضاري:

لقد اهتم مالك بن نبي من خلال أعماله ومؤلفاته حول الثقافة والهوية، وعلاقتهم ببعضهم البعض وعلاقتهم بالحضارة، كما أنه سعى إلى تحقيق البناء الكامل للهوية الوطنية والحفاظ عليها، مالك بن نبي حاول أن يعطي رؤية جديدة ومعاصرة لدراسة المعوقات التي من شأنها أن تعرقل التطور الحضاري وتقدم الحضارة الإسلامية في كل المجالات، كما أن مالك بن نبي وجد أن الإجابة ليست بعيدة عن المجتمع الإسلامي، بل لابد من الاهتمام به وتغيير ما يلزم تغييره، فالتغيير يبدأ من الداخل وليس من الخارج، إذن في هذا الفصل سوف نجيب على هذه الأسئلة: ماهي الثقافة عند مالك بن نبي؟ وما هي الهوية؟ وكيف برر مالك بن نبي العلاقة بين الهوية والثقافة وعلاقتهم بالحضارة؟ أيضا ما هي أهم المعوقات والأمراض التي من شأنها أن تعرقل تشكيل هوية وطنية متشعبة بالثقافة الإسلامية؟ وكيفية الخلاص من هذه المعوقات؟

1: علاقة **الهوية بالثقافة :** لقد اشتغل مالك بن نبي أثناء تأسيسه لريته الفلسفية للحضارة على تحليل الثقافة والهوية و طبيعة العلاقة التي تجمع بين التراث والهوية ومنه سعى إلى تحديد العوائق التي تحول دون تحقيق النهوض والتحضر بالرغم من توفر مقومات الحضارة المتمثلة في الإنسان والدين والتراب ثم عامل الزمن. الأمر الذي أصبح يهدد بقاء الهوية وفعاليتها في المجتمع.

مفهوم الهوية عند مالك بن نبي اتجه نحو اتجاه وطني أولا، ثم اتجاه الأمة الإسلامية العربية ككل، نتيجة الآثار التي خلفها الاستعمار، ليصبح مطلبه الأسمى يكمن في الحفاظ على هذه الهوية الوطنية وهوية العالم الإسلامي، وإعطاء قراءة ورؤية جديدة للأزمة الهوية الثقافية في العالم الإسلامي، محاولا بذلك استخراج القواعد الأساسية للنهضة التي تؤكد ان بناء النهضة يحتاج إلى امتلاك رؤية و وعي متسع الأفق و استماتة زمنية تحكمها ضوابط منهجية وفكرية وثقافية يمكن أن تسهم في توجيه الفعل الحضاري ، وبذلك تجاوز الشعارات البراقة الفارغة التي لم تؤتي ثمارها الموعودة والمزعومة[32].

فالهوية حسب مالك بن نبي تتشكل مع الطفل أو الإنسان بناءا على احتكاكه بالبيئة التي يعيش فيها، بمعنى أن الظروف والبيئة والثقافة المتواجدة حول الفرد منذ نعومة أظافره هي التي تشكل شخصيته وهويته، ويظهر هذا في كتابه " دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين" عندما بيّن أن الإنسان الذي يربى في وسط مفعم بالقيم الاستعمارية فإنه أمر مؤكد أن

[32] مالك بن نبي، مشكلات الحضارة " من أجل التغيير"، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط4، 2005، ص 6.

تتولد فيه الرغبة في الاستعمار وتقليد الغالب، مثلما تكون العملية مخالفة، يقول مالك بن نبي: "إن الهوة أصبحت تتسع بين الواقع الطبيعي الإنساني الذي ورثه وورث مسوغاته التقليدية وبين واقعه الثقافي اليوم[33] " ما يعني أن الهوية عند مالك بن نبي هي نتاج احتكاك الإنسان ببيئته مهما كانت ظروفها، وأيضا الهوية ما هي إلا مزيج بين الموروث التقليدي الذي فتح الإنسان عينيه عليه، وبين الواقع الثقافي الجديد في ظل التطورات التي يواجهها العالم. حسب مالك بن نبي فإن الإنسان هنا يعيش صراعا فكريا ثقافيا يؤثر في تشكيل الهوية وفعاليتها الحضارية، خاصة الرجل العربي المسلم باعتباره أكثر إنسان متعلق بالموروث "فالهوة بدأت تتسع، والإنسان أصبح يتمزق، خاصة الشباب، بين فكرة لا يستطيع التخلص منها تماما لأنها مسجلة في طينته البشرية، تلك الطينة التي كرمها الله، وبين واقع ثقافي لا يقدم له مسوغات ولا يعطيه بديلا عن مسوغاته التقليدية المفقودة[34]" ومنه تصبح الهوية هي ما وجد عليه الفرد و ما ترعرع عليه وهي كل موروث تقليدي احتك بيه الإنسان من الناحية الدينية والاجتماعية والثقافية، لتواجه هذه الهوية صراع فكري بين الموروث التقليدي والواقع الثقافي الحالي.

وهو يرى أن الحفاظ على الهوية الوطنية والإسلامية لا يمكن أن يتم إلا إذا تم بناء معالم حضارة قوية، وهذا ما طبقه أيضا على الجزائر باعتبار أن الاستعمار خلف مشاكل حضارية وتاريخية كبيرة، لكنه الحلول التي يؤسس لها ترتبط أساساً بالهوية الوطنية الذاتية حيث يقول"إن نقدنا لذاتنا لا يبدأ بوعي الآخر بل بوعي الذات وليس علينا أن نطلب تحمل مسؤولية بيتنا من الآخرين بل من أنفسنا إن الأجنبي ولو مشبوها لا يستطيع أن يفعل الضرر في بيتنا إلا إذا وجد من يحابيه ويتآمر معه[35] ، وعليه يصبح النقد الثقافي والحضاري عنده مشروط بأن يكون نقد داخلي أولا، لأن التركيز على مشاكل الأمة والحضارة يجعلنا نتمسك و نحافظ على الهوية الوطنية والعربية الإسلامية، بدل إلقاء اللوم على العالم الغربي فقط.

الهوية عند مالك بن نبي تقوم على التغيير الصحيح وينطلق هذا التغيير من الحضارة والاهتمام بأهم مقوماتها فمثلا لا يمكن لنا إحداث أي تغيير في رؤية الأمة إلاّ إذا غيرنا أفكارهم ونظرتهم للقضايا؛ ومن هنا جاء الاهتمام بالإنسان وغيرها من مقومات الحضارة، حيث أن الحضارة هي التي تشكّل الهوية القوية والمتماسكة، بمعنى أن الهوية لا يمكن أن تكون دون حضارة ولهذا اهتم بمقومات تشكيل حضارة قوية »وأسس التغيير عند ابن نبي تتجلى من خلال الاهتمام بعناصر ومقومات الحضارة التي تجسد مقومات الهوية الوطنية، وهي الإنسان، والتراب،والوقت، والفكرة الدينية التي تربط بين هذه العناصر، ومنظومة اجتماعية قادرة على احتضان هذه العناصر في تركيبها الكلي[36] " بمعنى أن إنشاء هوية قوية ثابتة ومتماسكة لابد من الاهتمام ببناء حضارة قوية وكاملة من كل المقومات والعناصر وسقوط الحضارة يؤدي إلى انحلال الهوية وتفككها.

تعتبر الحضارة عند مالك بن نبي ذلك الكيان المتكامل الذي يتألف من شق مادي وأخر معنوي تربطهما علاقة تفاعلية والكل يخدم الجزء حيث أن المجتمع يخدم الفرد وأيضا المادة تخدم الفرد حيث يقول مالك بن نبي في تعريفه لوظيفة لحضارة: »مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي

---

[33] مالك بن نبي، مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1991، ص25.

[34] المصدر نفسه، ص 26

[35] مالك بن نبي، من أجل التغيير، المصدر السابق، ص 23

[36] مقدود فريدة، الهوية الوطنية في فكر مالك بن نبي، مجلة مالك بن نبي للبحوث والدراسات، المجلد 4، العدد 1، 2022، جامعة غرداية الجزائر، ص 114.

تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل أفراده في كل طور من الأطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية لنموه [37]" وهو ما يؤكد وجود علاقة عميقة بين كل مجتمع وأفراده فهو يقدم صورة عن الحضارة تتمثل في الرعاية والبناء.

كما أن كل حضارة عند مالك بن نبي تتكون من إنسان باعتباره كائن اجتماعي متفاعل مع كل المقومات الهوية الثقافية، وتراب باعتباره المكان الجغرافي الذي تستقر فيه الحضارة وتسيطر عليه وتحميه من كل الايادي الخارجية، والوقت فلكل حضارة زمانها الخاص بها وسمات ذلك الوقت تؤثر فيها، كل هذه العناصر تربطها الفكرة الدينية1. فعن طريق الحفاظ على هذه المقومات وعناصر الحضارة يمكن لنا أن نحافظ على الهوية الوطنية والثقافة الخاصة بحضارتنا.

وقد أعطى أهمية كبيرة للهوية الوطنية الإسلامية، ذلك من خلال أعماله التي قدمها للفكر العربي المعاصر، كما أنه بحث جاهدا من أجل تحرير الذات الوطنية والحفاظ عليها، من كل العوامل التي قد تزعزع كيان الهوية الوطنية خاصة والإسلامية عامة هذا ما دفعه للبحث عن أسباب استلاب الهوية وذوبانها في هوية أخرى، كما أنه توصل إلى أن الشعوب المتخلفة لها استعداد كبير تخلي عن الهوية الوطنية الإسلامية . فحاول أن يفسر أسباب هذه الحالة المرضية، أي القابلية للاستعمار التي أدت إلى استلاب الهوية واللغة معا، لصالح هوية مشوهة جغرافية أو مذهبية، والنفور من اللغة العربية إما لصالح التحدث بلغة المستعمِر أو التحدث بلهجات عامية متنوعة غير موحدة كي تكرس انقسام الوطن و لغة وهوية غريبة عن الذات ومنه يبقى أسيرا لهيمنة المستعمر،وهذا يوّضح الخلل الداخلي المتمثل في الاستعداد للتخلّي عن هويتها الأصلية واستبدالها بهوية أخرى مهيمنة على الوضع، وهذا ما يحدث بين الحضارة العربية والحضارة الغربية، إذ يوجد الكثير من المفكريين الذين يعتقدون بأن السبيل الوحيد للنهوض بالأمة الإسلامية هي الانقياد بالحضارة الغربية والعولمة، وهذا ما يجعل الهوية مهدّدة بالزوال والانجراف، الأمر الذي دفع بابن نبي إلى الاهتمام بالهوية وتوظيف أغلب مشروعه خدمة للحفاظ عليها، وجعلها محور دراسته.

كون الهوية عند مالك بن نبي هي الانتماء الاجتماعي والثقافي والسياسي لبيئة معينة التي وجد فيها الإنسان، فهي تتشكل من خلال تجارب الانسان التاريخية والاجتماعية مما يشكّل الوعي بالهوية عند الأفراد، وهذا ما يجعل الدين الإسلامي من أهم عناصر الهوية في العالم العربي الإسلامي عامة والشعب الجزائري خاصة، وأيضا الموروث التقليدي الذي ورثه الفرد.

العلاقة بين الهوية والثقافة عند مالك بن نبي:

يمكننا اعتبار أن الهوية والثقافة من مكونات الحضارة، فلكل حضارة ثقافتها وهويتها الخاصة التي لابد من الحفاظ عليها، رغم أن هذه الهوية قد تواجه مشاكل وعراقيل وهذا ما حدث مع الحضارة الإسلامية مع تصاعد الاستعمار والغزو الثقافي، وأصبح السؤال العميق هو كيف يمكن لنا الحفاظ على الهوية الوطنية والهوية العربية الإسلامية في ظل الغزو الثقافي.

وهو يرى أن كل حضارة تمر على مراحل تاريخية مرحلة الأولى هي مرحلة التدهور والثانية هي مرحلة البناء أو ما يسمى بالنهضة، أي مراحل تفصل بين الماضي والمستقبل، وفيه تنقسم المواقف إلى التمسك بالماضي والموروث أو الانفتاح الثقافي، "حينما يصل التاريخ إلى مثل هذا

[37] مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر، سوريا، ط1، 1991، ص 43

المنعطف من دورة الحضارة، فإنه يصل إلى المنطقة التي تتصل فيها نهاية عهد ببداية عهد آخر، ويتجاوز فيها ماضي، الأمة المظلم مع مستقبلها المشرق البسام.[38] أول صدام للثقافة مع الهوية، كما أن مالك بن نبي يرى أن هذا الصدام لابد منه في دورة الحضارة التاريخية، وانبثاق التيارات الفكرية أمر ضروري.

فالنهضة حسب مالك بن نبي لها صورتين تتمثل الصورة الأولى تلك التي تتصل بالماضي، أي بخلاصة التدهور، وتشعبها في الأنفس وفي الأشياء، أما الصورة الثانية تلك التي تتصل بخمائر المصير وجذور المستقبل[39] .

كما أنه يدعو إلى التخلص من تلك العادات والتقاليد المتوارثة التي لا قيمة لها وتضر وتعرقل التقدم الحضاري ولا تنفعه يقول في هذا الصدد: »من أول واجباتنا تصفية عاداتنا وتقاليدنا وإطارنا الخلقي والاجتماعي، مما فيه من عوامل قاتلة ورمم لا فائدة منها،(...) ولن تتأتى هذه التصفية إلا بفكر جديد، يحطم ذلك الموروث عن فترة تدهور مجتمع يبحث عن وضع جديد هو وضع النهضة [40] فهو ليس ضد الموروث الثقافي كله بل ضد تلك العادات التي تعرقل التقدم والعيش الكريم، واستبدالها بأخرى تخدم الإنسان والحضارة، وهذا ما ينفي عنه صفة التعصب للهوية.

فقد أراد تحليل مختلف الجوانب الخاصة بالثقافة ومشاكلها من الناحية الاجتماعية والتربوية والأخلاقية، كما أنه يدعو لاستخدام المنطق العملي أكثر من المنطق النظري المجرد، حيث أن الجانب التطبيقي هو المفقود في الثقافة العربية الإسلامية لحاجة هذه الأمة إلى المنطق العملي لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه شيء يكاد يكون معدوما"[41] بمعنى أننا حضارة تفكر وتخطط دون أن تنفذ، وهذا تختلف فيه الثقافة الغربية عن الثقافة العربية، فالإنسان الأوروبي عملي.

الهوية والثقافة وجهان لعملة واحدة هي الدين:

إن نظرة مالك بن نبي ورؤيته تجاه الثقافة والهوية العربية الإسلامية ربطها بالدين الإسلامي فلا يمكن تفسير الأفكار الثقافية بعيدا عن الإسلام وصبغته، كما أن التماسك الحضاري في العالم الإسلامي تتم بواسطة هذا الدين يقول مالك بن نبي: " قوة التماسك الضرورية في المجتمع الإسلامي موجودة بكل وضوح في الإسلام، ولكن أي إسلام؟.. الإسلام المتحرك في عقولنا وسلوكنا والمنبعث في صورة إسلام اجتماعي"[42] بمعنى أن الثقافة تغلغلت في الهوية الإسلامية ولا يمكن تخيل هوية إسلامية بدون الدين الإسلامي، لكن الدين الذي يقصده مالك بن نبي هو الدين الإسلام المتحرك في المجتمع حيث يقول عنه الخبير الاقتصادي الليبي رفعت الفنيش »عرفته بروحانية الصوفي، وأصالة عالم الاجتماع، ودقة المهندس، وحماسة الداعية، وصرامة المنطق

---

[38] أرفيس علي، مفهوم الثقافة من منظور مالك بن نبي، مجلة أفاق فكرية، المجلد 11، العدد 01، 2023، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، ص 282.

[39] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، المصدر السابق، ص 70

[40] المصدر نفسه، ص 71

[41] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، المصدر السابق، ص 86.

[42] المصدر نفسه، ص 21

الموضوعي، وكرامة الزاهد، وشراسة المحارب بالعلم. [43]3 هذا ما يدل على النزعة الدينية التي اعتمدها مالك بن نبي في تفسيره لعلاقة الهوية الإسلامية العربية والوطنية بالثقافة.

حسب موقف مالك بن نبي فإن قوة التماسك الضرورية في المجتمع الإسلامي تحمي الهوية وترسخ قيم المجتمع الإسلامي، مقابل أي غزو ثقافي غريب عن الحضارة الإسلامية خاصة في عصر التطور والانفتاح والعولمة التي أصبحت فيه الهوية الإسلامية مستهدفة من خلال الثقافة »التي هي أخطر الجوانب الثلاثة للعولمة الجانب الاقتصادي والسياسي والثقافي على الانطلاق، ولهذا لابد لنا من توحيد القيم والرغبات والحاجات وأنماط السلوك والنظر إلى الذات وإلى الآخر، وغير ذلك من جوانب الثقافة والعلم والتعليم وذلك للحفاظ على الهوية ،أي أن السبيل الوحيد للحفاظ على الهوية الإسلامية في ظل التطورات والانفتاح عن العالم الغربي، التمسك بتعاليم الدين والتشبع بالثقافة الدينية والإسلامية وتنشئة الأفراد تنشئة مبنية على الدين الإسلامي، فهذا يقوي الحضارة من الداخل ويجعلها محصنة من كل غزو.

فالثقافة المتشبعة بالإسلام المتحرك تنشئ لنا فردا واعيا، وتصبح الحياة ذات دلالة ومعنى، وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل وصف طبقات إلى أخرى فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع ودوامه وضمانها لاستمرار الحضارة . وهذا ما يحافظ على الهوية الإسلامية وهوية الحضارة بمعنى أنه كلما كانت الثقافة معتمدة على الدين الإسلامي كلما حافظت على الهوية الوطنية الإسلامية.

موانع تشكيل هوية وطنية متشبعة بالثقافة الإسلامية.

هناك معوقات وعراقيل تمنع تحقيق النهضة على أكمل وجه كما أنها تمنع تشكيل هوية وطنية متشبعة بالثقافة الإسلامية، وسنتناول هنا احد أهم العوئق، التي تحول دون بلوغ هوية مؤسّسة على مقومات قادرة على الجمع والوحدة، هوية تستوعب المغايرة داخليا وخارجيا.

المعوقات الإنسانية والفكرية : فلقد سعى بن نبي للكشف على أهم العوامل التي من شأنها أن تعرقل وتعطل النهوض بالأمة العربية الإسلامية، ذلك من خلال إعطاء نظرة ورؤية جديدة تجاه هذه العراقيل، وقد وجها مالك بن نبي نظره تجاه الإنسان باعتباره السبيل الوحيد والأول نحو التغيير الاجتماعي والثقافي من أجل بناء حضارة قوية، وأول ما بدأ به هي طريقة التفكير والأفكار الموجدة في ذهن الفرد. حيث أن »هذه الأمراض هي التي تعيق طريق التحرك نحو نهضة حقيقية تخلق للهوية كل معالمها، لذلك كان منهجه في التغيير يقوم على محاولة علاج النفس والإنسان، فإذا تمكنا من هذه الخطوة نكون قد حققنا شوطا كبيرا في طريق تكوين هوية وطنية قومية، إن أول العراقيل التي لابد من التخلص منها هي تلك التي لها علاقة بالإنسان والنفس، فعلاج هذه المشاكل يؤدي إلى حل نصف الطريق نحو النهضة بالهوية الوطنية الإسلامية.

من أهم مشاكل الفكر والإنسان عامة ممارسته لمنطق الاستسهال أو الاستصعاب، هذا النوع من العراقيل، عبارة عن منطق تفكير ينتهجه الأفراد في بعض المجتمعات وموجود بكثرة في مجتمعنا الإسلامي وقد حذرنا منه ، بأن على المسلم ألا يتعامل مع منطق الاستسهال المفرط أو الاستصعاب المفرط مع كل القضايا المطروحة فهذا يجعل صعوبة للوصول إلى الهوية الإسلامية »إن من أكبر معوقات تكوين هوية وطنية مشبعة بالقيم الثقافية الإسلامية في المجتمع أن يتحكم فيه منطق

الاستسهال والاستصعاب، سواء في التفكير أوفي مواجهة المشكلات، فالروح التشاؤمية التي تحكم باستحالة الأمور وتقر مسبقا بأن الأمر الفلاني أو القضية الفلانية غير ممكنة الحدوث أو لا يمكن القيام بها، نظرا لصعوبتها وعدم امتلاكها للوسائل التي نستطيع من خلالها فعل هذا الأمر، تتساوى في نتيجتها وأثرها مع فرط في التفاؤل فتحكم على هذه القضية أو تلك المشكلة بأنها سهلة وبسيطة وفي كلا الأمرين/ ومن حالات الذهان هذه يتجه الفرد إلى النشاط غير المجدي .

إن هذا النوع من الذهان سوء كان بالاستحالة بمعنى تصعيب كل الأمور وتخيل الأسوأ دائما، يولد خلل وعطل في أي قضية نحن مقدمون على انجازها، كما أن ذهان السهولة يؤدي إلى كثرة الأخطاء والهفوات والابتعاد عن الهدف الرئيس فذهان الاستحالة الذي يحكم على الأشياء بصعوبتها واستحالة تنفيذها يقود إلى الشلل، وذهان السيولة الذي يحكم على الأشياء بسهولة أن تحدث يقود إلى النشاط الأعمى، والابتعاد عن الأهداف الحقيقية ،كون الإفراط في الشيء أو الفعل يخلص إلى نتائج وخيمة.

و يعتمد مالك بن نبي على الجانب الديني كثيرا منطلقا من آية قرآنية الآتية {إِنَّ الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [الرعد]11:، بمعنى أن الحضارة لن تبنى إلاّ إذا غير القوم والشعوب ما في أنفسهم، وهذا ما يستند له مالك بن نبي يقول: 'نقولها باعتبارها علما، ولا نقولها فقط تبركا بآية"[44] " لذلك لابد من تغيير في الأنفس ولهذا يقول: "لا يمكنه أن يغير شيئا في الخارج إن لم يغير شيئا في نفسه"[45]3 لابد من التغيير أن يبدأ من الداخل ثم إلى الخارج وليس العكس.

من أهم المشاكل المتعلقة بالجانب الإنساني والفكري انتشار الجهل والأمية كما أن مالك بن نبي لا يربط الأمية والجهل القراءة والكتابة بل يجب أن تكون في خدمة التوعية الحضارية والتغيير والصياغة السلوكية حتى يكون الأفراد مؤهلين تربويا وثقافيا لإعادة البناء والمساهمة فيه، فعملية محو الأمية إذن، يجب أن تخرج من دائرة تعليم القراءة والكتابة إلى دائرة أوسع وهي العمل على تثقيف المواطن وتوعيته أيضا بواقعه وبضرورة التغيير منه، ومبادئه وقيمه الخاصة، لأن الثقافة لا تعني الكتب والدراسات فقط، بقدر ما تعني النظرة التي تطور الحياة. فالجهل والأمية لم يبقى معناها سطحيا كما في البداية بل لابد من إعادة النظر في معنى الجهل والأمية كونه غير متوقف على القدرة على القراءة والكتابة فقط، بل يجب ان نوسع من ما صدقه ليشم مختلف جوانب الحياة ومستوياتها.

يعتمد مالك بن نبي على فكرة ثلاثية وهي "الإنسان+ الوقت + التر اب"، تعتبر أهم معادلة في فكره، ويعتبر الإنسان الجزء المهم في تسيير هذه المعادلة، فالإنسان تتأثر هويته بناء على ما يحيط به من عوامل اجتماعية وثقافية وسياسية ...الخ، كما أن الإنسان هو العامل الأساسي في أي عملية تغيير واردة باعتباره الحاكم الوحيد الذي يتحكم في المعادلة عن طريق التحكم في الوقت وهو الذي يشكل التراب. ومنه يمكن القول يوجود عدة مشاكل فكرية إنسانية، تعرقل بناء حضارة كاملة، كما أنها تعطل تشكيل هوية وطنية متشبعة بالثقافة الإسلامية، هذا ما دفع مالك بن نبي إلى الانطلاق من الظاهرة القرآنية التي تؤكد على الاهتمام بالإنسان، كما تعتبر الدين الحلقة التي تصل الإنسان بالوقت والتراب، ليقدم الحل لهذه المعوقات الإنسانية لذلك سعى إلى التركيز على الإنسان والنفس

---

[44] مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، المصدر السابق، ص 59

[45] المصدر نفسه، ص 60

أولا فإذا صلحت النفوس صلح كل شيء بعد ذلك فهي القاعدة الأولى التي لابد الانطلاق منها نحو التغيير، وبناء هوية وطنية منطلقة من الثقافة الإسلامية.

الثقافة الإسلامية التي تنبذ العنصرية والنظرة الدونية لأي كان، ثقافة إسلامية تقوم على التسامح والتعايش والتضحية والأخذ بأسباب القوة مادية كانت او معنوية، ثقافة إسلامية تجعل من الأخلاق الخيرة الموجه الأساسي للسلوك داخل أفراد الأمة، ثقافة إسلامية للفرد والجماعة مكانة سامية فيها، ثقافة إسلامية تجعل من التدين محفزا للعمل والعلم والتكامل والتعاون، ومن الهوية مرجعية للنهوض والتحضر. هوية قادرة على استيعاب التنوع داخل المجتمع الواحد من جهة وبين الأمة الإسلامية من جهة أخرى، تبتعد فيها عن الانتماءات الجغرافية أو العرقية أو المذهبية. ثم هوية تعيننا على تحديد مكانة محترمة بين دول العالم، وتمكننا من امتلاك معدة قوية قادرة على هضم المنتج الحضاري، مهما كان مصدره فتمتص ما هو مفيد ومغذي وتطرح كل ما هو غريب ضار. هذه الهوية المرجو تحقيقها والتي يسعى الفلاسفة العرب المعاصرين وان اختلفوا في توجهاتهم ومرجعياتهم، التأسيس لها.

ومنه يمكن القول أن مسألة الهوية والمغايرة، وإن كانت حساسة فهي قابلة للخروج من خلالها برؤية توافقية تبتعد عن الرؤى الفكريةالمنغلقة على ذاتها، وترفض كل أشكال النقد التي ترى بضرورة إعادة النظر في طبيعة مفهوم الهوية والمغايرة، لأجل أن تكون كيانا متحركا يقبل التعديل والتغيير، لأجل بناء مفهوما للهوية قادر على استيعاب المغاير الداخلي أولا، من اجل الحفاظ على الوحدة والخصوصية. وفي الوقت ذاته امتلاك هوية تعطينا القوة لاتخاذ موقع محترم في الحراك الثقافي والسياسي الذي يعرفه العالم، هذا الحراك الذي يشترك امتلاك مناعة قوية ومرونة سلسة كذلك. ومنه تصبح المرجعية الذاتية ضرورة اجتماعية وحضارية لتحقيق الكينونة وفي كذلك امتلاك قدرة ومرونة في الانفتاح على العالم المغاير، وهذا كله في ضل ضوابط قيمية حضارية انسانية.

ملاحظة: النماذج المستأنس بها هي على سبيل الاستئناس ولا تلغي وجود رؤى فلسفية اخرى تشتغل على مسألة الهوية والمغايرة. وللمزيد من الاطلاع يمكن البحث في الموضوع اكثر.